الموسيقى والمسرح

مجلة أسبوعية تصدر شهرية مؤقتاً

يصدرها

دكتور محمود احمد الحفنى

الادارة ، شارع عماد الدين
٩ عمارة عماد الدين ، عابدين
الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة

الاشتراكات عن سنة واحدة
٦٠ قرشاً صاغاً داخل القطر
١٢٠ قرشاً صاغاً خارج القطر

العدد السابع والاربعون — (السنة الرابعة) يناير سنة ١٩٥١ الثمن ٥٠ مليما

في هذا العدد

كلمة المحرر

عيد الجامعة

ومهرجان العلم

وثيقة التاريخ وخطاب معالى الوزير

كان الأسبوع الأخير من ديسمبر موسم المواسم كلها فى ختام العام الميلادى الماضى . . . أسبوع جامعة فؤاد الاول فى عيدها الفضى أى بعد جهاد ربع قرن من الزمن فى تعليم شباب مصر بل شباب الأمم العربية

جمعاء. خمس وعشرون عاما هي خمس وعشرون صحيفة من كتاب التاريخ أملتها جهود رجال العلم وأعلامه فى مطلع فجر النهضة الوطنية العامة. وكان عظيماً حقاً أن تسفر نهضة البـــلاد عن الجامعة التى أصبحت معسكر العقول والأفهام، والتى جندت المواهب فى موكب الفكر الإنسانى، ووقت البلاد شر التخلف وهى مصر أم المدنيات ومهد الحضارات. وما كان لها أن تصنع غير هذا الصنيع.

كان إنشاء الجامعة تعبيراً صادقاً عن طموح شباب الوطن. وما أسرع ما اجتازت الصعاب، وتخطت المراحل، وسمت فى المنازل صعداً. تغرس العلوم والآداب، وتشجع آمال الشباب، حتى قدمت بين عشية وضحاها الى مصر والى الدول العربية الشقيقة ثماراً هى خلاصة الجيل الحاضر، ونواة المجد الباهر.

استقبلت البلاد عيد الجامعة وهو عيدها المرتقب، وفرحها المنتظر، ومهرجان شعبها المأمول. فما تخلو مدينة ولا قرية من جامعى يشعر بأن اليوم عيده. بل كل مدرسة يشعر طلابها وطالباتها بأن اليوم يوم الجامعة، يوم تكريم العلم، وإعلاء مناره، وتسجيل فخاره.

ولكن الموعد الذى تخيره القدر بات فوق حسبان التفكير وتقدير الإنسان. ولو أن أحداً أراد أن يتخير موعداً كهذا لما تيسر له الاختيار على النحو الذى ارتضته الأقدار. فهـذا ختام عام وبداية عام، حيث يطوى التاريخ صحيفة ليسطر صحيفة أخرى. وهذه مواسم دينية وقوميـة وأعياد عالمية تحتشد وتتلاقى فى أوقات متقاربة. فعيد المولد وعيد الميلاد يتصافحان على تقارب من الزمن، هذا فى يوم الجمعة وذاك فى يوم الأحد الذى يليه. وكأنما أرسلتهما الأقدار وفد استقبال واتحاد وإخاء بين طوائف الأمة فى أفراح قـد اتصل بعضها ببعض اتصال الأرواح بالأرواح. فلا ترى وجهاً الا وعليه نضرة مضيئة وابتسامة مشرقة، ونظرة يطالعك منها البشر.

وأيا كان مصدر هذه الأفراح وبواعثها من المواسم والذكريات فقد التقت مع العيد الفضى للجامعة التى استحقت اسمها فهى جامعة العلوم والآداب وحفلاتها الفضية جامعة المباهج والأعياد. وقلما عرفنا مثل هذا الموكب من أعياد الزمن فى يوبيل مضى، حتى الطبيعة نفسها فى تلك الآونة أضفت على مواكب هذه الحفلات من صفاء سمائها وإشراق شمسها ما جعل الحياة فى مصر تبدو فى منظر الربيع وكأننا استقبلناه بعد أوانه. أو كأنما هو الذى سبق الأوان ليشترك فى المهرجان.

واذا كانت هذه أعياداً وذكريات لمولد الرسول وميلاد المسيح عليهما السلام، فقد كان هذا اليوبيل حفلا يذكرنا بميلاد الجامعة وقد اجتاز موكبها فى ركب الحياة البشرية خمسا وعشرين عاما. وفى اقامة هذا اليوبيل والاحتشاد له أهداف ومرام اجتماعيـــة سامية ترجع الى إيقاظ الهمم وتقوية روح الطموح والإشادة بما للعلم وأهله من كرامة وتمجيد. والناس انما يقبلون على الأشياء بما يكون لها من تقدير وقيمة

بين الأحياء . وهذا حفل اشتركت فيه الحكومة والشعب والأمم العربية الشقيقة ، بل العالم كله ممثلا فى ثلاثين جامعة من جامعات الشرق والغرب .

وثيـــقة التـــاريخ

ما كان أحوج التاريخ وهو يسجل حفلات هذا اليوبيل الى مؤرخ . وهكذا يتيح القدر للتاريخ هذه الصدفة المنتقاة أيضا فإذا بمعالى وزير المعارف ورئيس الجامعة الأعلى الدكتور طه حسين باشا . هو هو الذى يملى على التاريخ قصة الجامعة وهى قصة يجب أن يصغى اليها الجيل بقلبه لا بسمعه لأنها مراحل نهضة هذا الجيل نفسه تجاوبت بها أمواج الأثير فى السابع والعشرين من ديسمبر . ودوى ذلك الصوت العربى الواضح ، وذلك البيان القويم السليم . وأصغينا مع الدنيا ، لا الى وزير يتكلم بل الى الزمان بنفسه يتكلم .. ففى ذلك الأسلوب البيانى ألقى معالى الوزير بين يدى جلالة المليك خطابه الجامع عن مراحل التقدم فى الجامعة . وإذا بها تسبق مولدها الرسمى بكثير ، وقد كشف عن الجهود التى بذلت فى تشييدها ، وهى أمنية اختلجت فى نفوس أبناء الشعب ، وكانت تسير مع المطالب الوطنية فى مظاهرة واحدة ، ترددت بها الأنفاس الحارة فى أقلام الكتاب وقصائد الأشعار . وأقيمت حفلات الاكتتاب لمشروعها حتى شاء الله لها أن توجد قبل أن تولد . أما وجودها ففى بداية القرن وأما ميلادها فمنذ خمس وعشرين عاما . وجلالة الملك الراحل فؤاد الأول هو رئيسها ومصدر مرسومها الأول . وفى ظل هذه الأولية نرى معالى الدكتور طه حسين باشا من البداية ، عاش الجامعة واستقبل أشراقتها الأولى بذكائه المتوقد ، واقترن اسمه باسمها فكان بها الطالب المرموق المشار اليه بالبنان ، ثم عاد اليها استاذاً من أعلام الأدب والتاريخ . فلما حان ميلادها الرسمى كان هو أيضا فى تلك البداية الأستاذ الشيخ ، ثم العميد القدير حتى صار الرئيس الأعلى بوصفه وزيراً للمعارف . . . وهكذا شاء القدر أن يكون هو هو الذى يلقى قصته فى الجامعة أو قصة الجامعة فى حياته .

إن القلم يحاول أن يسبقنى الى الاستفاضة فى الكثير والكثير ، ولكنى أرى المجال أقصر مما أريد ، والحديث اليوم وان كان يبدو أكثر مما أحاول فلا أقل من أنها عجالة موجزة دون الخطاب الذى عرفنا به تلك الأرقام العالية فى الانتاج الجامعى . وكيف أن كثيرين من رجال تاريخنا الحاضر ما كان يعرف فضلهم لعامة الناس وجمهرة البلاد لولا إشادة معالى الوزير بجميد أثرهم وكبير فضلهم .

وخير لنا أن نستمع الى القصة والتاريخ من مصدرهما الأصيل فى خطاب معالى الوزير الجليل

دكتور محمود أحمد الحفنى

كلمة معالى الدكتور طه حسين باشا
وزير المعارف فى عيد الجامعة

مولاى صاحب الجلالة

باسم هذه الجامعة أساتذتها وطلابها أرفع إلى جلالتكم أصدق الشكر وأعمقه وأخلص الحمد وأوفره لهذا الفضل العظيم الذى شملتمونا به حين تفضلتم وقبلتم أن تشهدوا هذا الحفل . وإن هذا الشكر العميق الذى أرفعه الى جلالتك يامولاى لا يعبر عن شعور هذه الجامعة وحدها وانما يعبر عن شعور الجامعات المصرية كلها بل يعبر عن شعور الذين يعنون بالعلم يدرسونه ويعلمونه فى جميع أقطار مملكتك ذلك أن تشريفكم هذا الحفل انما هو مظهر من مظاهر هذه العناية السامية التى تشملون العلم والعلماء بها منذ ارتقيتم الى عرش آبائكم الكرام

إنا نحتفل اليوم بالعيد الفضى لهذه الجامعة التى أنشأها والدك العظيم والتى تشرفت بأن تحمل اسمه الخالد. فمنذ خمسة وعشرين عاما أصدر والدك العظيم قانوناً ينشىء هذه الجامعة كما هى الآن ، ولكن هذه الجامعة نشأت قبل ذلك بأعوام طوال . نشأت فى أوائل هذا القرن حين فكر جماعة من صفوة المصريين فى أن يستنقذوا بلدهم من مخالب الجهل ومن مخالب العلم المتوسط الذى لا يكاد يغنى عن أصحابه شيئاً .

حين فكر جماعة من صفوة المصريين فى أن يتيحوا للمصريين أن يطلبوا العلم العالى والثقافة الممتازة وأن يطلبوهما فى بلادهم دون أن يضطروا الى أن يتغربوا أو يهاجروا من بلادهم هؤلاء الذين فكروا فى هذه الجامعة لم يحتاجوا الى تفكير طويل ليختاروا لهم رئيساً وقائداً، وانما فكروا قليلا ثم أسرعوا الى والدك العظيم الأمير احمد فؤاد يطلبون اليه أن يكون رئيسهم وقائدهم وأن ينشىء معهم هذه الجامعة وفى سنة ألف وتسعمائة وثمان افتتح والدك العظيم هذه الجامعة داعياً شباب مصر الى أن يقبلوا عليها ، ليتعلموا وليأخذوا العلم من موارده الصحيحة .

وقد كان والدك العظيم ملهما يامولاى فإنه حين أنشأ هذه الجامعة لم ينشىء معهدا من معاهد العلم العالى فحسب انما أنشأ معهداً من معاهد تحرير المصريين . تحرير عقولهم وقلوبهم ودعائهم الى الحرية الكاملة .

أن الذين يذكرون الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الكبرى يجب حين يذكرونها وحين يؤرخونها أن يضعوا بين المؤثرات التى دعت اليها وأثارتها انشاء هذه الجامعة التى كانت أشبه شىء بالشعلة القوية الحرة ، أقامها والدك وسط مدينة القاهرة فانبعث نورها وانبعثت حرارتها فملأت العقول نوراً والقلوب حرارة .

ولم يكن والدك العظيم يا مولاى مغروراً

ولا متواضع التفكير ولا قانعاً بصغار الأمور وانما كان متواضعاً فى نفسه كبيراً فى آماله وأمانيه كبيراً فى مطامعه لوطنه أيضاً فهو قد فهم منذ انشأ هذه الجامعة أن العلم يجب ان يكون فوق الأجناس وفوق الوطنيات ، وأن العلم لا وطن له وأن العلم هو الميدان الوحيد الذى يلتقى فيه الناس من حيث هم ناس يشعرون ويفكرون .

وأن الاحتلال الأجنبى يا مولاى قد أضاع على وطنه وقتاً طويلا ولا بد من أن يعوض هذا الوقت .

ومن أجل هذا طلب العلماء فى جميع أقطار أوروبا جاء بهم من فرنسا ومن بريطانيا العظمى ومن ايطاليا ومن ألمانيا وأذكر يامولاى انه احتاج الى أن يلقى امبراطور ألمانيا بصفة خاصة ليستعينه على أن ترسل ألمانيا الى مصر بعض المستشرقين

لم يكن يقصر فى جهد ولم يكن يتردد فى احتمال مشقة مهما تكن وانما كان يرى الأشياء كما هى ويأخذ لها عدتها كما ينبغى ويسعى فى تحقيقها وقد كتب الله له التوفيق فى كل ماسعى اليه

هذه الجامعة التى أنشأها والدك العظيم فى أوائل هذا القرن أعانه على انشائها صفوة من المصريين لا أذكر منهم الأحياء وانما أذكر منهم بعض من انتقل الى رضوان الله ، أذكر سعد زغلول وأذكر حسين رشدى ، وعبد الخالق ثروت ، وقاسم أمين والدكتور علوى ، واعانه عليها جماعة من خيرة العلماء الأوروبيين قضى بعضهم نحبه وبعضهم يشهد معنا هذا الحفل يامولاى ، فإلى الذين قضوا نحبهم ارسل تحية هذه الجامعة وارسلها خالصة مقدسة

وأذكر منهم يامولاى شخصاً كان والدك العظيم يحبه ويؤثره ايثاراً شديدا هو الاستاذ (كارلو فللينو) وأذكر من الأحياء أيضاً شخصا كان والدك يحبه ويقربه ويدنيه وهو بيننا الآن هو الاستاذ ليتمان .

ولم تكن المصاعب التى وجدها والدك فى تقوية هذه الجامعة وتنشئتها يسيرة فقد كان السلطان فى ذلك الوقت لا يكتفى بانه لا يعترف بالجامعة وانما كان يبث المصاعب أمامها خشية أن ينتشر النور فى مصر وان يستيقظ المصريون ومع ذلك فقد انتشر النور واستيقظ المصريون .

ولم تلبث هذه الجامعة الناشئة أن آتت ثمرها يامولاى فى وقت قصير وانى استأذن جلالتك فى أن اترك التواضع دقيقة أو بعض دقيقة.

ان وزير المعارف الذى يتشرف بالحديث الان بين يدى جلالتك انما هو الثمرة الأولى لغرس فؤاد العظيم .

على أن فؤاد لم يكن ينسى ولا يحب الذين ينسون فلم يكد يرقى الى عرش محمد على واسماعيل حتى ذكر جامعته وحتى أبى الا أن تكون هذه الجامعة هى الجامعة الأولى فى مصر بل هى الجامعة الأولى فى الشرق العربى كله ففى سنة ١٩٢٥ أصدر قانوناً ينشىء هذه الجامعة ويفرضها على السلطان فرضاً .

منذ ذلك الوقت أخذت هذه الجامعة تعمل قوية حازمة ماضية فى طريقها لا تخشى شيئاً لأن فؤاد كان يسندها ويؤيدها ويمنحها معونته ونصره

دائماً وماهى إلا أن تمضى أعوام حتى تأخذ الجامعة فى تخريج الطلاب الذين يؤثرون التأثير العميق القوى فى الحياة المصرية كلها من جميع نواحيها بل فى الحياة الشرقية كلها من جميع نواحيها .

ويكفى أن أقول يا مولاى انها الى الآن قد أخرجت أربعة وعشرين ألفاً ونصف ألف من حملة الليسانس او البكالوريوس وثلاثة آلاف من حملة الدرجات العليا الجامعية ، فقدر يا مولاى اثر هذا الجيش العظيم الذى أنشأه الدك . قوبته انت بمقاومة الجهل والغفلة ونصف التعليم لا فى مصر وحدها بل فى الشرق العربى كله .

منذ عشر سنين يا مولاى كنا نتحدث بأن مصر تمتاز بأنها تقوم فيها جامعتان احداهما هى أقدم جامعات العالم وهى الأزهر الشريف والأخرى هى أحدث جامعات العالم وهى جامعة فؤاد ولكنك أبيت يا مولاى الا أن تغير هذا كله فلم تصبح جامعة والدك العظيم أحدث الجامعات لأنك أبيت إلا أن تسلك طريقه وتنهج نهجه وتدفع مصر الى أمام كما دفعها هو الى أمام وما هى إلا أن تنشىء الجامعة الثانية التى تشرفت باسمك العظيم والتى تعيد الى مصر مجدها القديم حين ترسل أشعة العلم ونوره من وراء البحر الأبيض المتوسط فقلنا لقد أصبحت جامعة فاروق أحدث الجامعات وتقدمت جامعة فؤاد فى السن شيئا وظلت ممتازة بأنها البلد الذى فيه أحدث الجامعات وأقدمها ولكنك أبيت الا أن تدفع جامعتك الأولى الى شيء من تقدم السن فأنشأت جامعة ثالثة هى جامعة محمد على ولم تكد تفكر فى انشائها وأن توازن بينها وبين اختيها حتى سبقتنا وانشأت جامعة ابراهيم كأن بينك يا مولاى وبين الجامعات خصومة تأبى على كل واحدة منها أن تكون أحدثها وأصغرها سناً .

ففى هذه المدة القصيرة منذ رقيت الى عرش آبائك أنشأت جامعات ثلاثا وكلأت بجامعة والدك العظيم بهذه الرعاية التى اتاحت لها أن تنمو وتسمو وتنتشر . وتنشىء من المعاهد مالا أكاد أحصيه وتنشىء مكتبة لها خطرها بين مكاتب الشرق بل بين مكاتب العالم الاسلامى .

فى هذه المدة القصيرة انشأت هذه الجامعات ونميت جامعة والدك . أليس من حقنا أن نحسب لطموحك هذا الحساب كله وأن نعتقد أنك صممت الا تريح ولا تستريح ولا تترك المصريين يهدأون قبل أن تكون لهم الجامعات التى ليس منها بد .

مولاى

باسم هذه الجامعة التى أنشأها فؤاد وباسم الجامعات الثلاث التى انشأتها وباسم مصر التى تنعم بوجودك وجهودك وقوتك وشبابك وباسم الحكومة المصرية التى يجب أن تكون تحت أمرك كلما أردت أن تنشىء معهداً للعلم جامعة هنا وجامعة هناك .

باسم هؤلاء جميعاً وباسم هؤلاء الأصدقاء الأجانب أصدقاء مصر الذين قبلوا دعوتنا ليشتركوا فى هذا الاحتفال والذين حضروا الآن ليرفعوا الى جلالتك شكرهم كما نرفع شكرنا

باسم هؤلاء جميعا

أتوجه الى الله عز وجل أن يمنحك القوة والجلد وأن يتيح لك من الحياة الخصبة النافعة ما يملأ مصر والشرق العربى كله حياة ونورا وأن يتيح لك يا مولاى أن تحيى الأعياد الفضية لجامعاتك كما تحيى الآن العيد الفضى لجامعة والدك

أطال الله بقاءك يا مولاى وجعل حياتك كلها عيداً لعقول مصر ولقلوبها وللشرق العربى كله .

ذكرى حقوق الانسان

الموسيقى فى معركة الحرية

أعلنت منظمة الأمم المتحدة فى اليوم العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨ حقوق الانسان وأذاعتها من قصر شايو بباريس . وكان فى طليعة ما تقرر منها أن جميع بنى الأنسان يولدون أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق ، وأنهم قد وهبوا العقل والضمير على سواء وينبغى أن يتعامل الكل بروح الإخاء .

وهذا الحق وما يليه من الحريات مستلهم من نفس الفطرة البشرية فهى التى قررت لكل إنسان حقه فى الوجود . ولن يتحقق لهذا الوجود معناه فى كائن باعتباره إنسانا إلا من حيث كونه مساوياً لنظيره الإنسان . وقد قررت الشرائع السماوية والنواميس الكونية حق الحرية الفردية فى الحدود التى لا يعتدى فيها الفرد على نظيره . ومن الخير أن تسفر الثورات والحروب عن التصريح بمثل هذه المبادىء وإن كانت معلومة بالضرورة من واقع الحياة . وجميل بها أن تعلنها وإن كانت مهضومة مظلومة فى الحياة أيضا . فلو أنه أتيح لها تطبيق عملى على هذه الأرض لاستراح كل إنسان واطمأن الآدمى فى أى مكان أو زمان. فالأديان السماوية ، ورسالة الأنبياء على الأرض ، إنما جاءت لإقرار هذه الحقوق بعد الإيمان بالله وإفراده بالعبادة والتقديس دون الأوثان المصنوعة من الحجر ، أو المصنوعة من البشر .

أليست الكلمة الأولى التى وضعت شعاراً للمسلم هى قوله « لا إله إلا الله » ؟ فتى قالها واعتقدها وآمن بها انطلق فى الحياة انطلاق الطائر حراً فى فضاء الكون ، ليس على ضميره مسيطر . وليست ثمة أغلال ولا قيود تأخذ عليه سبيل الانبعاث والانطلاق لأنه لا يدين بحياته إلا لواحد هو الذى وهب الحياة حين شاء ، وهو الذى يستردها حين يشاء . وقد تجلى فهم هذه الحرية كثمرة من ثمرات عقيدة التوحيد فى قول عمر بن الخطاب « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ »

وعلى ضوء هذه العقيدة قد نصت الشريعة الاسلامية على إثبات حقوق المرأة فى تصرفاتها المالية والشخصية مما لم يكن معترفا به لها قبل ذلك . ولم تعترف به التشريعات الحديثة إلا أخيراً . بل صانت حقوق الطفل فى الميراث وهو جنين بل صانت حقوق الحيوان الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

وكانت مصر فى طليعة الشعوب التى احتفت بذكرى هذا اليوم وقد لبثت الآماد الطوال فى النضال عن حريتها والمطالبة بحقوقها . وقد خصصت للمساهمة فى تلك الذكرى العالمية وقتا من إذاعتها اشتركت فيه الموسيقى ، على نحو ما اشتركت فى العام الماضى .

وحيث أوضحنا يومئذ ألوان الكفاح المرير

التى عاناها الموسيقيون بأوربا فى العصور الوسطى حتى كان جهادهم مثالا يحتذيه المظلومون والمضطهدون من أصحاب العقائد والمبادىء والرسالات الانسانية، فقد أوضحنا يومئذ أن الهيئات النقابية قد وضعت لبناتها الأولى بأيدى هؤلاء الموسيقيين الذين دفع بهم الاضطهاد إلى ابتكار التجمع فى هيئات قامت لاسترداد حقوقهم، ويؤسفنى أن أقول باسترداد إنسانيتهم واعتبار وجودهم. ومن ثم ارتفع شأنهم ولم يعودوا أحراراً فقط، بل ألقى على عاتقهم وضع أناشيد الحرية وابتكار نداءات الاستقلال وتحطيم سلاسل العبودية بالنغم الذى ترتل فيه الشعوب رسالة الحرية فى الوجود، بل رسالة الوجود فى الحرية.

أما فى هذا العام فقد أوضحنا مقدرة الموسيقى على المطالبة بحقوق الانسان بلغة الألحان حين يؤخذ سبيل القول على اللسان، فإلى القراء كلمة الموسيقى فى يوم حقوق الأنسان:

الموسيقى فى دولة الحرية

انبعث وحى الموسيقى من أعماق الفطرة البشرية، وحلق فى فضاء الوجود حراً طليقاً ليهتف بحقوق الأنسان. والحرية أول كلماتها، والكرامة الذاتية أقدس آياتها.

وعندما اجتازت البشرية أحقابا سادها الظلم والظلمات وتحكمت فى الضمائر والعقول أغلال وقيود من شتى العبوديات وحين كانت الكلمات المعبرة عن الألم المرير تتعثر على الشفاه وتبقى حبيسة فى صدور أصحابها لا تصل إلى الأفواه، وحين تخوف الأفراد والجماعات أن يمسوا بالتماس حق الأنسان فى الحرية تهيباً من سياط الجلادين إذ ذاك انطلقت الموسيقى مدوية بما ينشده الفنان لحرية الفكر وحرية الشعب وحرية الأنسانية.

إن الأجيال التى ظلت مختنقة بعبودية تهددها بالفناء وجدت من الموسيقى رئة تتنفس بها وآفاقا تحلق فيها ولغة تفصح عنها. فإذا الأنسانية إلى جانب الفنان: هى صامتة وهو ناطق. هى مصغية وهو يؤدى لها ما أخـــذه عنها. كم من أوطان وشعوب وأجيال ومذاهب وآراء وأفكار وجدت فى الموسيقى وحدها مدافعاً لا يتهيب ومعبراً لا يخطىء التعبير ومصـوراً يفوق بمعزفه ريشة التصوير.

كانت الموسيقى فى كل جيل وفى كل أمة بمعزل عن القيود والحدود فهى تعبر عن حرية الرأى وحرية الشعور وحرية العاطفة وحرية الإيمان وحرية العقل وحرية الضمير. وعن طريق الأغنية الصامتة والقصة المصورة فى ألحانها قالت كلمتها الصريحة الواضحة التى أعلنتها منظمة الأمم المتحدة من قصر شايو ان جميع بنى الأنسان يولدون أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق.

إن البطولات الفردية هى التى خلقت الجماعات بقدر ما للجماعة من فضل فى إنشاء البطولة. أولئك هم عباقرة الأمم الذين واصلوا قافلة التحرير والانقاذ من أغلال العبودية، أولئك هم الأبطال الذين نفضوا غبار اليأس ومزقوا حجبه عن الشعوب فأيقظوها ووثبوا لاعلاء مستواها وإعلان حرية التفكير والعمل المنتج فيها. تلك البطولة فى مثلها الأعلى هى المهد الذى درجت منه الحريات جمعاء وتلك البطولة فى الصورة التى يمجدها الفنان وترسمها الألحان هى التى نستمع إليها فى إحدى مقطوعات بيتهوفن الخالدة.

عمـــــــر الخيـــــــام

فى الشعـــــر والغنـــــاء

الرجل المؤمن الملحد ، الموقن المتردد ، المخمور الواعى ، الجامع بين الرياضة والأدب ، وبين الطب والشعر ، وبين علم النجوم والخيـال ، المحلق فوق النجوم ... ذلك هو عمر الخيام .

ولد عام ١٠٥١ ميلادية وتوفى عام ١١٢٣ فى نيسابور من أعمـال خراسـان . بدأ نشأته ثالث ثلاثة . أما صاحباه فهما نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان ثم وزير ابنه ملك شاه حفيد طغرول بك الذى انتزع مملكة فارس من أيدى الغزنويين . أما زميله الثالث فالحسن بن الصباح .

تتلمذ عمر الخيام على موفق الدين مع صاحبيه هذين وكان كل منهم يرجو النبوغ ببركة هذا العالم التق . وقد ضمتهم تلك العشيرة العلمية وإن اختلفت بهم المواطن . فان نظام الملك كان من طوس وكان الحسن من الرى . اتفق ثلاثتهم على أن الفائز يأخذ بيد صاحبيه الى قمة المجد . فقدر لنظـام الملك أن يتسنم غارب الوزارة الرفيعة فى أعظم بلاط إسلامى إذ ذاك . وزاره الحسن بن الصباح وطالبه بأن يفى له بعهده . ولـكن الحسن كان ماكراً غادراً فنصب الحبائل والأشراك لنظام الملك ليهبط به من كرسى الوزارة الى الحضيـض الأوهد . فأدرك الوزير حيلته واضطره الى أن يلوذ بالفرار . فولى وجهه شطر مصر وفيها الفـاطميون . فكان من دعاة المذهب الفـاطمى فى دولتهم الى أن أنشأ جماعة الفدائيين فى جبل « ألاموت » فى قصة يطول بها الشرح والتفصيل .

أما الخيام فقد قنع من نظام الملك بألف ومائتى مثقـال من الذهب ، تصرف له من ايراد خزينة « نيسابور » . وقد نال الحظوة فى بلاط بغداد . كان مقرباً الى قلب أرسلان وإلى ابنه ملك شاه . ولعله تأثر قليلا حين لقى ابن الصباح وإن لم يكن من شيعته كما استفاد من إقامته بحاضرة الخلافة وعاصمة الملك الشاسع ، الذى أنشأ فيها الوزير المدرسة النظامية التى تخرج فيها أمثال الغـزالى والسهروردى وأبو اسحق الشيرازى . ويظن بعض المؤرخين - وله فى ذلك بعض المعذرة — أنها شيدت لمنافسة الجامع الأزهر الذى انشأه الفاطميون بالقاهرة

اشتغل عمر الخيام بالطب ووضع رسالة فى الطب والكيمياء والفلك وندبه ملك شاه فصنع له التقويم الجلالى الذى فضله كثير من المؤرخين على التقويم الجوليانى وغيره .

قالوا إن عمر الخيام طاف بالأقطار العربية ، وقام بفريضة الحج ، واستدلوا من ذلك على إيمانه وصحة إسلامه وقوة عبقريته . أما ابن القفطى فيرى أن هذه تقية . وكلمة « تقية » من الألفاظ

التى يتداولها الفرس ويريدون بها أن يتظاهر إنسان بمذهب غير الذى يعتقده ويؤمن به، كى لا يستهدف لتألب الرأى العام عليه أو تعرضه لسخط الحكومة وتنكيلها . ولعل فى هذا كثيراً من الحق ؛ إن لم يكن هو الحق كله . فإن تلك الآونة التى ظهر فيها الخيام كانت من جميع نواحيها مهد الاضطرابات السياسية والدينية والعصبية . فهذا الخليفة «المستعلى» بمصر ومن بعده من بقايا الفاطميين . وهذه بغداد وبها خليفة وملك ووزير .. وهذا هو الشرق يضطرم فى أتون تغلى به الحياة غليان المرجل ، فأهل السنة بين وفقهـــاء ومحدثين وهؤلاء هم الشيعة بين اسماعيلية واثنى عشرية .. تلك المذاهب والآراء والنحل ما كان للخيام ان يعيش بها إلا متفرق النفس مشتت الأهواء متبلبل الخواطر .

ملأ شعره بالخمر المقدسة والعشق على نحو ما صنع أبو النواس عند العرب وكثيرون من شعراء الفرس . وتأول بعض الصوفية شعره وعدوه من أرباب القلوب الصافية الذين يموتون فى أنفسهم ليحيوا فى ربهم . بينما نرى غير الصوفية يرون فى الخيام شخصية المتمرد على التقاليد الذى أنكر الرسل وملأ شعره بالمتناقضات على نحو ما صنع أبو العلاء .

ومهما يكن من القول فى عمر وفى عقيدته فقد هزت رباعياته آفاق العالم الأدبى ، واشتهرت اشتهار الشمس ، وذاعت ذيوع النور . وأخذ شعره بمتلك ألباب الناس جميعاً حتى خصومه الذين اعلنوا إلحاده وكفره . ولم تؤثر نزعات الشك المنتشرة بين رباعياته فى مكانته الأدبية وعظمته الفلسفية .

كان عصر الخيام مطلع فجر اليقظة للشعر الفارسى وباكورة شباب الأدب الراقى فى تلك اللغة بعد أن درست معالم اللغة البهلوية على أثر الفتح الاسلامى . وكان كثيرون من الشعراء يعدون من أصحاب اللسانين ، العربى والفارسى ، ومنهم السعدى والخيام . ولكن التاريخ لم يحفظ لنا القسم العربى من شعر الخيام ولعله قد ذهب فيما انطوى من معالم التاريخ وما احترق من المكاتب بفضل غزو التتار .

تحير عمر فهرب إلى الخمر وأغرق فى كؤوسها ودنانها ، وفنى فى عبابها وطوفانها ، ليغسل شقاءه بالخمر وبالحب . هذا هو عمر الذى لم يتزوج ولم يخالط الناس . بل مال إلى العزلة كما صنع المعرى .

وقد اهتم العالم كله بترجمة رباعيات الخيام . وما كادت تصل إلى أوربا حتى تناقلتها اللغات بعضها عن بعض ، ثم ذهب الخيام مذهب العطر ، وسلك مسلك الفن الجميل إلى اللحن وإلى التصوير والرسوم البديعة ، وسكن مع الأسر فى منازلها والهيئات فى أنديتها ، وصدرت منه طبعات قيمة فى قدرها وفى ثمنها ، وتنافس الناس فى إطلاق اسم الخيام على ما يحبونه من الأزياء والأشكال والأوضاع ، واتخذت رباعياته المكانة المثالية فى فلسفة الشك التى جمع فيها بين الفكر المتوثب والعاطفة الجياشة والزهد فى الحياة والتعلق بها . وقد ترجم إلى العربية عدة مرات وعلى أساليب مختلفة . فترجمة للبستانى وأخرى للنجفى وثالثة للسباعى ورابعة لرامى وهى التى ظفرت أخيراً بغناء مقطوعة منها على لسان كوكب الشرق ومغنية الجيل ام كلثوم .

ما كان لأحد أن يتوقع للخيام ولفلسفته غناء ساحراً كالذى انطلقت به أمواج الأثير فى الشهر الماضى وفى اوائل هذا الشهر مرسلا هذا السحر السمارى من إنشاد ام كلثوم ونغمها الذى امتلك على الأسماع كل مافيها من إنصات وإصغاء . عهدنا بمثل شعر الخيام أن يقرأ ليتأمله القارئون، وليتناولوه بما شاءوا من أفكارهم لأنه شعر الرأى والتفكير، شعر يتكلم عن الموت والحياة وعن الشباب والمشيب . ولكن أم كلثوم جعلت منه قصة بديعة يجمع فيها المستمع بين الطرب والتأمل وبين العجب والإعجاب . فتمثلنا هذا الخيام فى حديقة من حدائق نيسابور وهو يحدثنا أنه سمع منادى الأسحار ينادى النائمين ويوقظهم لاستقبال نشوة الحياة وارتشاف كأسها مليئاً بالمنى قبل أن يملأ القدر كأس العمر . وهو فى ذلك الوقت لا يبالى بالأمس ومراحله ولا يبالى بماضيه ولا بحاضره . . وها هو ينادى الى نعيم الحياة وأفراحها لأنها حلم ذاهب وطيف غارب . . ها هو عمر يستغيث بالموسيقى فيفزع من الأسحار إلى مناغاة الأوتار فقد تعب من توالى الليل بعد النهار ومن مسير الأنجم فى هذا المدار . ثم يترفق بهذا الثرى لأن ذراته هى التى ألفت الثغور وصنعت العيون الحور . ثم لا يلبث الخيام أن يفيق من خمر فلسفة بعد حيرته التى لم يدر فيها لماذا جاء إلى الدنيا وأين المفر منها . وفى هذا الصحو يفىء إلى الله ويثوب إليه ويقول إن الإثم أسكرنى ولكن الأمل فى رحمتك أيقظنى . . هكذا يثوب ويتوب ويستغفر ويختتم قصته على النحو الذى سمعناه .

وقد استطاعت أم كلثوم أن تسمعنا ألحاناً سماوية يتمثل بها أربعة فى وقت واحد هم الشاعر والمترجم والملحن والمغنى .

لئن كان الخيام يشك فى خلوده فلقد ردت اليه أم كلثوم عقيدة الحياة ومثل الخلود . فليقرأ القراء مقطوعة الخيام فى غير هذا المكان من المجلة فقد احتفظنا بها لهذا العدد تسجيلا لتراث شرقى فى لفظ عربى ولحن قومى فى غناء مصرى .

أغنـــــــــية أم كلــــــــثوم

من رباعيـــات الخيـــام

:

سمعت صـــوتاً هاتفاً فى الســحر
نادى من الغيب غفـــاة البشر
هبـــوا املأوا كاس المنى
قبل أن تملأ كاس العمر كف القدر

أفق خفيف الظل هـذا السحر
نادى دع النـوم وناغى الوتر
فما أطال النــوم عمراً ولا
قصر فى الأعمار طول الســهر

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا بآت العيش قبل الأوان
واغـــنم من الحـــاضر لذاته
فليس فى طبع الليـــالى الأمان

فكم توالى الليــــل بعد النهار
وطال بالأنجـــم هـــذا المدار
فامش الهوينـــا إن هـــذا الثرى
من أعين ساحـــرة الإحـــورار

غـــد بظهر الغيب واليــــوم لى
وكم يخيب الظن فى المقبـــل
ولست بغافل حـــتى أرى
جمـــال دنيـــاى ولا أجتـــلى

لا توحش النفس بخوف الظنون
واغنم من الحاضر أمن اليقين
فقد تساوى فى الثرى راحل
غـــد وماض من ألوف السنين

القلب قد أضـــناه عشق الجمال
والصـــدر قد ضاق بما لا يقال
يارب هل يرضيك هـــذا الظما
والمـــاء ينساب أمامى زلال

أطفىء لظى القلب بشهد الرضاب
فأنـــما الأيام مثل السحاب
وعيشنا طيف خيـــال فنل
حظك منه قبـــل فوت الشباب

أولى بهـــذا القلب أن يخفقا
وفى ضرام الحب أن يحـــرقا
ما أضيع اليـــوم الذى مر بى
من غـــير أن أهوى وأن أعشقا

لبست ثوب العيش لم استشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم
أدرك لماذا جئت . . أين المقر

يا من يحار الفهم فى قدرتك
وتطلب النفس حمى طاعتك

أسكرنى الإثم ولكننى
صحوت بالآمال فى رحمتك

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك
فاننى أطمع فى رحمتك

وإنما يشفع لى أننى
قد عشت لا أشرك فى وحدتك

تخفى عن الناس سنا طلعتك
وكل ما فى الكون من صنعتك

أنت محلاه وأنت الذى
ترى بديع الصنع فى آيتك

إن تفصل القطرة من بحرها
ففى مداه منتهى أمرها

تقاربت يا رب ما بيننا
مسافة البعد على قدرها

يا عالم الأسرار علم اليقين
يا كاشف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار عدنا إلى
ظلك فاقبل توبة التائبين

البـــاليه الهنـــدى

للاستاذ أنيس منصور

« غاية الانسان أن يتشبه بالآلهة ، وكان الآلهة يرقصون ، فتنساب الخمور بين أصابعهم الى الوديان المقدسة فيغنى كل شىء حى على الأرض ، وتحت الماء ، وفى السماء .. »

فلابد إذن أن يرقص الانسان .

والرقص كما تقول الأساطير الهندية ، منحة إلهية ، فقد كان « شيفا » أول راقص بعثت به الآلهة إلى الأرض ليبشر بنوع من الفن الجديد يخلص الروح من أثقال البدن . وكانت الحكمة القديمة تقول : انفض عنك البدن ، وارقص وارقص دائما .

لقد كان « شيفا » يغنى بكل اللغات معا وفى آن واحد . وكان يحلى سترته بالنجوم والأفلاك . فلما أن هبط الى الأرض والتقى بجماعة من النساك عكفوا على الصلوات والدعاء وراح يلقنهم تعاليم الآلهة ثاروا عليه واستعدوا عليه السحر الأسود ، فكانت النار تقذفه بالحيوانات الضارية ، ولكن شيفا كان يمسك بها ويلفها حول ذراعيه .. ويرقص وتعود النار تقذفه بدخان يتلوى أفاعى سامة ، فيلفها حول عنقه أكاليل غار .. ويرقص ويرقص . ويقول : إننى أشارك الأكوان فى لحنها الأبدى . فكل شىء يرقص كما شاءت له حكمة الآلهة !

وكان « شيفا » يرقص « رقصة الخلق » و « رقصة البقاء » و « رقصة الفناء » ثم « رقصة الخلاص » فالرقص صلوات الروح فى ثوب البدن .

والرقص يرتبط بالدين منذ أقدم العهود والراقصات والراقصون خدام الآلهة . تحلى جدران المعابد بصورهم وحركاتهم . وهكذا اتصل الرقص بالمعبد وليس الرقص وحده ، بل كل الفنون ، قد خرجت من المعبد .

والهند أكثر بلاد العالم معابد ودورا للصلاة بل إنها أكثر بلاد العالم عقائد وأديانا ولغات ولهجات ، ولكنها مع ذلك لها لغة واحدة وعقيدة واحدة هى الرقص التقليدى ، الذى ورثته « مرينالينى سارابهاى » وتحركت أوصالها به منذ الرابعة من عمرها ، فأدرك أبواها أن الطفلة الصغيرة ستحمل هذه الرسالة الكبيرة الى الهند والى العالم الغربى كله . وأما أمها فعضو البرلمان الهندى اقتادت ابنتها الى الحياة وفنونها وما زالت بها حتى تنقلت من آسيا الى أوروبا ثم الى أفريقيا الآن تعرض تراث الأجداد منذ آلاف السنين ، وأما أبوها فاستاذ الأشعة الكونية فتح عينيها على الأكوان البعيدة فى لحنها الأبدى الصامت .

وتتزعم « مرينالينى » المدرسة التقليدية فى

الرقص الهندى ، وتقف قوية فريدة الى جانب المدارس الهندية المعاصرة التى تستلهم خطواتها وحركاتها من الرقص الأوروبى الكلاسيكى من ايزادورا دنكان الى تمارا تومانوفا . ولكن الهند تعتز بفن مرينالينى لأنه يعرض رسالة الآلهة الى أبناء الهند ، وإلى العالم كله .

* * *

وفى هذا الجو الهندى العتيق ، الذى تتسرب فيه الأنغام واحدة واحدة هادئة نائية من أصابع الآلهة الذين تربعوا على قمم الهملايا ، الى وديان الهند الفسيحة منذ مئـــات القرون ، وعلى ضوء الشموع التقليدية وفى سحابات البخور المقدسة ، وعلى مسرح الحضارة الحديثة ، تبدت « مرينالينى سارابهاى » تعرض رقصات « بهاراتاناتيام » القديمة بل الممعنة فى القدم .

ورقصة « بهاراتا » قدسميت باسم الحكيم الذى كان يؤلف المسرحيات للالهة ، وإن كانت « بهاراتا » معناها أيضا « العاطفة - اللحن - الايقاع » . وعلى ذلك فهذه الرقصة الطويلة التى أبدعت فى تصويرها فرقة مرينالينى ، تشتمل على اللحن تؤديه احدى فتيات فرقتها بصوت ملؤه السحر والرمز والغموض وهمهمات أول الأمر ثم ألحان دون معنى ثم غناء باللغة السنسكريتية القديمة . وأما العاطفة فهى التى رأيناها فى أصابع مرينالينى وقد انفرجت لأمل وانقبضت ليأس ، وفى ذراعيها تباعدا للجفاء وتعانقا للقاء ، وفى عينيها السوداوين الواسعتين ، وفى شفتيها وفى كل لفتة من لفتاتها . وأما الإيقاع فقدماها تضربان المسرح فى نظام يتمشى مع الطبلة الهندية الغريبة . . وهى تضرب قدميها ابدا كأنما تذكرنا بالأرض إنه من هنا يجب أن نصعد الى هنالك الى أعلى .. الى الآلهة .

ثم عرضت مرينالينى رقصـــة كاتاكالى وهى أحدث أنواع الرقص الهندى جميعا ذلك أنها ترجع الى القرن السادس عشر ، وفى هذه الرقصة تتصارع قوى الكون ، الآلهة والشياطين فى زحام من الألوان صارخ : خضرة الآلهة وحمرة الشياطين وسواد الليل والضياء التقليدية لشعاعات الفجر الوليـــد . . صورة حية عنيفة كأنها لوحة فنان سريالى ثائر ، جمع الأضداد جميعا وأطلقها بعضها على بعض وحارت الطبول والمزامير بينها !

* * *

ولا يختلف الباليه الهندى عن الباليه الكلاسيكى الغربى ، وهو اسيوى الأصل أيضا ، إلا فى أن الباليه الهندى يصاحبه الغناء وذلك لإشاعة الجو الدينى القدسى حتى ليجعلك تشم رائحة الجدران الرطبة فى المعابد المطوية على شموع وبخور ودعاء ..

.. ذلك فن إلهى نسج من نور السماء وحكمة الآلهة ليضىء تراب الأرض ويسمو بنزوة الانسان .

التطور الموسيقى في نصف القرن العشرين

الموسيقى الخالدة فى مصر الخالدة

إن مصر ذات المدنيات العريقة هى أول من أنطق الأوتار بالنغم ، واستودع الناى روح الفن السمارى فانطلقت فى سماء الوادى ألحانه الساحرة ودق المعازف والدفوف فهز قلب الوجود وأمد الانسانية بالنور والحياة . فقبل أن تنبثق فروع المدنيات ، أشورية وكلدانية فى الشرق أو يونانية رومانية فى الغرب ، كانت مصر هى الدوحة التى تتفرع منها الأغصان ، وحاملة المشعل الذى يرسل الضوء فى كل مكان . ولم تكن لتلك المدنية ما يصورها للعالم ويصفها للدنيا والتاريخ مثل الموسيقى التى صدحت بها الأبواق الفرعونية يوم نفض الزمن غباره عن حفريات توت عنخ آمون وأذن الله لخلقه أن يسمعوا فى القرن العشرين الصوت المصرى المنبعث من آلاف السنين كأن موسيقى المدنية المصرية كانت تطل من عشرات القرون الغابرة على أحياء هذا الجيل الذين أتيح لهم أن يستمعوا الى لون الأصداء المصرية القديمة منبعثة من تلك الآلة . ثم يشاء القدر أن يحدث هذا فى الوقت الذى تأخذ فيه الموسيقى المصرية أهبتها للوثوب والارتقاء ومسابقة أمثالها فى أمم المشرق والمغرب .

ومصر هى التى آل اليها تراث المدنيات الغربية يوم تلاقت بها ثمار الحضارتين العباسية والأندلسية وامتزجت بحضارتها الفاطمية ، الى أن اندفعت اليها قبائل وحكومات تركية أفادت من آثارها الفنية فى الموسيقى التى ألقت عليها المدنية الفارسية ظلالا من فنونها ومصطلحاتها .

فمصر العربية كمصر الفرعونية يدلى اليها الشرق بحضارته ، وتصب الأمم فى محيطها كل ما استودعتها الطبيعة من مواهب وآثار .

وقد خيمت على هذا الشرق ظلمات حالكة استبدت به زهاء ستة قرون وكانت ممالكه ترزح تحت أعباء من النكبات الجسام والتدهور والانحلال حتى اذا أراد الشرق أن يصحو من سباته ، وان يرفع الحجب المسدولة على مدنياته ، كانت مصر أول من استيقظ فيه الوعى وصدح به الفن ، ارتفع فيه صوت الموسيقى .

. . .

وكانت بداية هذه اليقظة الحديثة فى مصر مقترنة بظهور نجم محمد على الكبير فى أفق السياسة

والبطولة ، فما أن دان له الحكم واستقر له الأمر ، واطمأن الشعب إلى الثقة بالحياة ، حتى بدأ يتطلع إلى الغذاء الروحي الذى حرم منه طوال سنين مرت به عجافاً واحتملها أعباء ثقالا . أعنى أنه ابتـدأ يستشرف إلى الموسيقى ، فكان لهذا العاهل الشرقى العظيم أول فضل مأثور على الموسيقى وأهلها بما أنشأه فى مصر من مدارس لتعليم الموسيقى، وبإذكائه روح التنافس بين الموسيقيين . ففى مدى عشر سنوات أنشأ خمساً من هذه المدارس لتغذية الجيش والأسطول فى البحر . وأخذ الفن الوطنى ينهض من كبوته ويفيق من غشيته . وساعده محمد على بمزيد من العطف والتشجيع . ولا أدل على ذلك من أنه شمل برعايته ملحن عصره الكبير محمد القبانى فجعله كبير الملحنين لديه ، كما أنعم على « ساكنة » المغنية بوسام على سبيل التقدير والإعجاب .

وجاء عصر اسماعيل فعمل على إنماء آثار جده ومضى فى السيرة على نهجه ، ورأت الموسيقى فيه المشجع والنصير فسلك مسلكه تجاه موسيقى الجيش فى تحسين وتغيير يلائمان تطور الزمن . ثم انتحى ناحيـة التجديد والإنشاء فأقام دار الأوبرا للمسرحيات الغنائية . ولم يشغله ذلك عن الفن القومى فشجع المشاهير من نجبائه والنابغين من أبناء عصره . وكانت له منهم حاشية تلازمه فى سفره وإقامته . وما هو إلا أن لمعت فى الافق أسماء عبده الحامولى ومحمد عثمان وأمثالها فكانوا النواة الأولى التى اقيمت على آثارها مدرسة الجيل الجديد .

* * *

بدأ القرن العشرون فبدأ معه عصر التسجيل وكانت هذه حسنته الأولى . لقد قامت المطابع بتسجيل الكتب فحفظت علوم الأقدمين ولكن أصوات القدماء وفنونهم لم تجد ما يطبعها ويحفظها . لهذا لم يكن بد من أن يقنع المرء من كواكب تلك الحضارات الموسيقية القديمة بالأسماء وبالنصوص الغنائية أو بالوقائع والحوادث .

هذه سنة ١٩٠٥ تطالعنا بالتسجيل الحديث فى مصر لأول مرة فتقدم إلينا إسطوانات ، ليس فيها صوت عبده والمظ ومحمد عثمان أو من قبلهم من محمد القبانى وساكنة، ولكنها تحمل طابعهم وطرائقهم فى الغناء وأسلوبهم فى الأداء ، ولكن فى صوت يوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى ومحمد سالم واحمد حسنين وغير أولئك ممن عاصروا من ذكرنا من هؤلاء الأقطاب السابقين ولكن الأجل امتد بهم حتى خلدهم التسجيل الحديث .

وأخـذ المغنون ، طبقة بعد طبقة ، يظهرون سراعا ويقبلون تباعا . كما أخذ التسجيل بدوره ينمو ويتزايد ويأخذ طريقه الى التحسين . ونشأ عن ذلك وفرة الثروة الغنائيـة التى غمرت الأسواق والبيوت والأندية . ففى كل بيت ترى حاكيا يدير فى عجلته عشرات وعشرات من الحناجر والآلات فى مئات من الاسطوانات قد جمعت من دول الشرق والغرب خير ما فيها من أغنيات ومقطوعات . فانكشفت الحقائق والأشخاص والعبقريات وأخذ كل فنان يحاول التجديد والإبداع حتى لا يكون هو أيضاً حاكياً . إلى أن نشأ فى أوائل هذا القرن أيضاً نوع جديد هو الموسيقى المسرحية التى لا غنى

لهذا الجيل ولا للأجيال القادمة عنها، لأنها هى المتنفس الجديد الذى ستنطلق به الموسيقى العربية الى التطور والانبعاث بعد أن استمرت طيلة الأجيال والقرون رهناً بالقصائد والموشحات وما إليهما. وقد رأينا فى طليعة حملة المشعل الشيخ سلامه حجازى أول مصرى قام على خشبة المسرح يغنى من ألحانه وأغانيه ما سحر الألباب واختلب العقول. وما كان لكثير من تلك المقطوعات أن يعيش ويتنفس فى أفق أدبى لولا ما للموسيقى من الفضل وما لفنه من الروعة وما لشخصه من المقدرة. فقد أثبت الشعب المصرى نضوجاً عجيباً حيث استجاب مسرعاً إلى تذوق نوع لم يتعوده من الغناء بل أقبل عليه إقبال الظمآن حتى شجع ذلك على ظهور نجوم أخرى ما كانت لتظهر لولا ما رأت من تحمس الشعب لحامل المشعل الأول فى الغناء المسرحى، وقد نثر عليه الجمهور الأكاليل فى حياته ورثاه أعظم الشعراء فى وفاته.

ها هو نجم الشيخ سيد درويش يطل على النظارة فيبهر الأنظار. أو قل ها هى بضعة أرواح تتقمص روحاً واحدة. أو قل بالأحرى إنها روح واحدة اضطلعت بالفنون الموسيقية المختلفة فهضمتها خير هضم وأنتجت فيها أبرع إنتاج.

كان الشيخ سيد درويش شخصية تجمع مزايا متفرقة فى مذاهب موسيقية مختلفة، فهو يساير المدرسة القديمة فى تلحين الدور والقصيدة، ثم هو يساير المذهب الحديث اذ يلحن الرواية. ولا يعنينى قيمة التأليف اللفظى والحبك القصصى وطرائق الإخراج، وإنما يعنينى من ذلك الشيخ العبقرى الفنان أنه قدر على إبداع فنى ترجمت فيه الموسيقى عن صور وأحداث، فى شعوب عربية وتركية وعجمية وإفرنجية، دون أن يقصر فى الاحتفاظ بمقومات الموسيقى العربية أو يخرج عن طابعها.

وهبت نار الثورة الوطنية والنهضة المصرية عام ١٩١٩ فكانت يقظة للوعى المصرى فى جميع جهات الحياة وأهدافها، علمية وعمرانية وفنية. فما لبثت الموسيقى أن بادرت إلى حلول مكانها فى الصدارة لتعبر عن هذه الحياة الجديدة. فسارت مع المظاهرات، واشتركت فى الحفلات، وانطلقت على الأفواه، وأطلت من قمة المسرح، وأخذت تترجم عن كلمة الوطنية الى المشاعر. ولا أبالغ إذا قلت إن الموسيقى قد استردت فى سرعة عجيبة مكانتها العليا وقيمتها الأدبية السامية. فلم تعد تستخفى فى الحظائر والحجرات والمجالس الخاصة، أو تستكن وراء الكهوف، بل سارت فى الطرقات مع السائرين، وتقدمت الى الموكب مع حملة الأعلام والرايات، وهى تؤيدهم بالألحان والنغمات وتذكى فى أناشيدهم النور والنار. وكان المسرح خير مكان تنطلق فيه لتعبر عن كل شىء. فلئن كانت موسيقى التخت محدودة بالموازين والتواشيح والأدوار والقصائد فموسيقى المسرح هى مرآة المجتمع والفرد ومعرض الطبقات وتقديم مناظر الحياة جمعاء. أعنى كل ما تحتويه الحياة فى تجارتها وصناعتها وزراعتها، فى مدنها وريفها، فى شدتها ورخائها، فى سلمها وحربها، فى شقوتها وسعادتها. أعنى أن

المسرح الموسيقى أو الموسيقى المسرحية قامت لتعبر عن الشعب للشعب ، وتصف الجماعة للجماعة ، وتدل على طريق المجد فيسلكه العاملون وعلى قمة الحرية فيسمو إليها المجاهدون .

ومن ثم أخذ الكثيرون من أعلام المدرسة القديمة يلتمسون الحياة في هذا النهوض الموسيقى الذى وجد الذخر والعتاد بتشجيع ساكن الجنان الملك فؤاد الأول . وكأن عهده رحمه الله كان أمنية غالية ترتقبها الموسيقى فى مصر الحديثة ، فما لبثت بين عشية وضحاها أن أصبحت فى ظل رعايته فناً يتنافس فى تعلمه والإلمام بأصوله وقواعده ، ونالت بين العلوم والفنون المنزلة الجديرة بها وأصبحت تعد بين الناس صناعة شريفة لها أثرها فى بناء مدنية مصر الناهضة . وصارت جزءاً هاما من ثقافة الشعب وعلما يدرس بالمدارس المصرية إلى جانب العلوم الأخرى ، وفناً يقبل الجميع على ارتشاف مناهله وفى طليعة الراغبين فيها كبار القوم وعلية الأمة ومن بينهم من يقف جهوده وحياته كلها على نهضة الموسيقى وإعلاء رايتها . وفى هذا القرن أوفدت الحكومة المصرية أول بعثة علمية لدراسة الموسيقى فى أكبر معاهد أوربا ، وكان ذلك للمرة الأولى فى تاريخ هذا الفن بما يعد خطوة جديدة لبناء الموسيقى العربية على أساس صحيح من الدراسة والتنظيم . وفى ذلك العهد أيضا نجم أول نبت تحول به ناد صغير مجهول لم يكن يضم إلا عدداً من هواة الموسيقى إلى معهد كبير وبناء فخم يليق بأعماله وأغراضه وتوجيه رسالته وتحقيق أهدافه من من النهوض بالموسيقى العربية الى المستوى اللائق بها . وقد أضفى عليه ذلك الملك العطوف البار من الهبات ما أينع به غرسه وطاب جناه فكان جديراً بالانتماء إلى شرف اسمه الكريم حين أطلق عليه بعد ذلك « معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية »

وفى تلك الآونة الزاهرة أيضا أقيم أول مؤتمر للموسيقى العربية فى القاهرة ضم الأفذاذ البارعين من المشتغلين بالموسيقى علماً وأداء فى مصر والبلاد العربية ، واستقدمت اليه فرق المحترفين من شتى هذه الأصقاع والأنحاء ، كما اشترك فيه علماء الغرب المشتغلون بالموسيقى العربية لبحث كل ما يتعلق برقيها وتعليمها ووضعها على قواعد علمية ثابتة معترف بها . وكان لهذا المؤتمر من الجهود والنتائج ما أصبح له عظيم الأثر فى إنهاض الموسيقى بمصر وشقيقاتها العربية . ويمكن إجمال هذه الآثار فى أمرين أولها ما قام به المؤتمر من تسجيلات وتدوينها للقديم الموروث بما يحيط لتاريخ الموسيقى صحيفة خالدة يعتز بها . وأما ثانى الأمرين ففى رسم الخطط والتوجيهات للسير على نهجها السوى فى المستقبل . وثمت أمر ثالث لا يمكن اغفاله ولا إهماله أعنى ذلك الأثر الأدبى الذى ترتب على فرصة ذهبية اتاحها المؤتمر للرأى العام فى مصر والشرق أدرك بها أن للموسيقى مكانة عالمية وعلمية لا تقل فى قدرها ومكانتها عن بقية العلوم والفنون

واطردت النهضة الموسيقية فى تقدم متواصل على مناهج واسعة النطاق من التجديد والإنشاء والابتكار بفضل تلك الأسس والدعائم التى ارتكزت على مبادىء قديمة ومجهودات ثابتة لم تزدها الأيام إلا اطراداً فى النماء وازدهاراً فى التحسن والارتقاء .

وزاد هذه الرسالة قوة ونجاحاً أن أشرق عليها عهد الفاروق الذى أضفى على الفن معنى من شبابه ورفع شعلة النور فى طريق الفنانين الذين نالوا من تشجيع جلالتـــه مكانة هى فى الواقع تكريم للفن فى تكريم أشخاصهم .

وفى عهده الكريم زادت عناية وزارة المعارف بالتعليم الموسيقى كأداة قوية لتربية النشء وتهذيب الخلق والذوق . وتخـيرت للقيام به نخبـــة من المتخصصين فيه . وتجلت بوادر الانتاج مبـكرة فأصبح التعليم الموسيقى فى يسير من الزمن ثقافة وأداة تهذيب تناولت الطفل فى روضته والبنت فى مدرستها والشباب فى معاهدهم إذ اعتبرت الموسيقى مادة أساسية فى مناهج رياض الأطفال ومدارس البنات على اختلاف أنواعها والمدارس الابتدائية للبنين وبعض المدارس الثانوية . ولعل من قبل المعجزات الفنية الدالة على الاستعداد الفنى فى مصر وهو فى نفس الوقت نتيجة وأثر لهذه المرحلة من التعليم أن يستطيع أربعون الفاً من الأطفال أداء مجموعة من الأناشيد المصحوبة بفرق قوية من الآلات فى مهرجان ملكى تجلى مظهره الرائع فى ساحة عابدين العامرة يوم عيد ميلاد الفاروق ... وكل ذلك فى صوت واحد وأداء واحد يكاد المرء يحس معه بأن هذه الآلاف المتجمعة فرد واحد .

وكان طبيعياً أن تتعدد معاهد الموسيقى بتعدد أغراضها وأهدافها فلم يعد معهـــد فؤاد وحده مستقلا بأعباء هذه الرسالة بل أنشئت الى جانبه معاهد أخرى تسلك نهجه وتسير على غراره فى القاهرة وخارج القاهرة . كما قامت وزارة المعارف من جانبها بانشاء معهدين كبيرين هما « معهد الموسيقى للمعلمات » لتخريج المربيات والمدرسات اللائى يقمن على تدريس هذا الفن بالمدارس ، والمعـهد العالى للموسيقى المسرحية الذى يهدف الى تقديم فئة صالحة ويخرج طبقة ممـتازة من المغنين والعازفين يتميزون بقدرتهم وتفوقهم من أداء المسرحيات الغنائية من أوبرا وأوبريت وتجـد بهم الموسيقى العربية الأكفاء القادرين على التطور بها فى هذه الناحية .

وهـذه الخطوات التعليمية فى العشرين عاما الأخيرة تستطيع أن تتحدث عن نفسها بنفسها أو لعلها فى غنى عن الحديث . وحسب المرء أن ينظر الى وادى النيل من أقصاه الى أقصاه ليجد الثقافة الموسيقية وقد عمت الأرجاء والأنحاء ، وكادت أن تمحو الأمية الموسيقية .

وكما بدأ هذا القرن العشرون بمعجزة التسجيل على الاسطوانات الحديثة بما أثار المواهب وحفز المشاعر وأيقظ العبقريات ، فقد فوجىء هذا العهد الأخير بمخترعين لم يسبق لهما مثيـــل فى خطرهما وعظم أثرهما ، أعنى الإذاعة والفلم الناطق .

لقد كان كل أمر الاسطوانات ألا يعـدو التسجيل فيها دقائق معدودات ، أما هذان الأخيران فأثرهما فوق التقدير والحساب . اخترعت الإذاعة وانتشرت أجهزتها فامتد تيار الموسيقى امتـداد الكهرباء فى المدينة والقرية ، وفى القصور والبيوت والأكواخ . فالقائم والقاعـــد والمسافر والمقيم والبعيد والقريب ، كل أولئك يتناولون وجبات موسيقية تقدم اليهم صباح مساء على أشهى الموائد

وأبدع الألوان ، ومن جميع صنوفها وأطيبتها ، عربية وغربية ، قديمة وحديثة ، عزفاً وغناء ، بعد أن كان المستشرف لهذا الفن يحسب نفسه سعيداً لو أتيح له الاستماع الى مغن شهير مرة بين الحين والحين . وها هو الفلم الناطق يمطر النظارة والمستمعين وابلا غزيراً من فيض الموسيقى الروحى وإنعاشها السماوى فى ساعات متواصلة ، تتغير فيها المناظر وتتبدل الألحان وتتعاقب الأصوات ويتوالى المغنون والمغنيات فى أداء عذب والقاء ممتع ، ونقل لصور الحياة المختلفة ومناظرها المتباينة على الشاشة البيضاء والشريط المسجل المناسب فى تسلسل ألحانه للصور والمشاهد .

كان لهذين المخترعين حفز للعزائم ودوى فى مستقر السرائر وإيقاد لشرر العبقريات المتوثبة الى ميدان المنافسة التى تحمل الفنانين على ألا يجتزئوا بما حفظوه أو بما تعلموه أو بما ورثوه ، بل تدفع بهم دفعاً الى الابتكار ، والابتكار الممتاز . ففى كل يوم مفاجأة بجديد من الألوان والألحان . فإذا لم يصنع الفنان ذلك ذهب ذهاب الأمس وانطوى اسمه من القائمة .

كان من أثر ذلك أيضاً أن الغناء لم يعد رهيناً حبيسا بين مقطوعات محفوظة متلوة معادة ، بل أخذ طريقه الى كل مستودعات الأدب العربى . وخرج الشعر العالى والقصائد الرفيعة من المكاتب والقراءة الخافتة الى الحياة المدوية والغناء المسموع فكم شاعر خطير لم يسمع لشعره غناء فى حياته فأصبح بفضل هذه المخترعات وعبقريات الفنانين على ألسنة الجميع . وشعور الفنان بأن آثاره الفنية سيجول بها الإذاعة أو الفلم فى مشرق الأرض ومغربها ينبه فيه الوعى بفداحة المسئولية ويضطره والمـؤلف معه الى الانتقاء والاختيار ثم الى الاجادة والابتكار .

هذا مجمل النهضة الموسيقية فى مصر فى نصف قرن ، ليس مقال واحد مستطيع أن يحصى كل ما يجيش فى النفس ويخطر بالبال عنها ، بل لعل كتابا واحداً لا يستوعب ذلك فأسماء الأغانى المؤلفة والمقطوعات المختارة فى هذا الأمد القصير من الزمن تكلف الإحصاء شططاً لو حاول أن يضع لها القائمة التى تجمع العناوين فضلا عن النصوص بأكملها

وكما بدأ نصف هـذا القرن بالصفوة المنتقاة المتحدرة من الجيل الماضى ممن ذكرنا أسماءهم ، فإن نهاية نصف القرن هذا قد أشرقت على العالم العربى وعلى الدنيا بنجوم من الأسرة الموسيقية كانوا أصحاب الفضل وأقطاب الفن . وليس لى أن أحصى أسماءهم أو مزاياهم . ولعلى أكون قد أنصفت الجميع لو أنى نوهت على سبيل التمثيل بأزهى كوكبين فى الوقت الحاضر ، هما أم كلثوم وعبد الوهاب . فلتعتبر كل فنانة أنى أقررت بفضلها ونوهت باسمها فى اسم أم كلثوم . ولينظر كل فنان الى ما أكن لشخصه من التقدير حين أذكر عبد الوهاب .

إن هذا نصف قرن قد مضى من الزمن ولكنه سجل الزمن كله فى خمسين عاماً سيجد العالم فى تراثه ما لم يجده فى تراث خمسين قرن مضت ونرجو أن يكون لجهوده المأثورة ما يشجع الأجيال القادمة على مواصلة ركب التاريخ .